آليات الحجاج اللغوية في "حديث الأربعاء" لطه حسين

مقاربة تداولية في نماذج من الجزء الأول

Argumentative linguistic mechanisms in “Hadith al arbiaa” by Taha Hussein

A deliberative approach in models from the first part

عيسى تومي*
المدرسة العليا للأساتذة ورقلة
toumi.aissa@ens-ouargla.dz

كمال غيابة
المدرسة العليا للأساتذة ورقلة
kamelkamelghiaba@gmail.com

تاريخ الإرسال: **2024-08-01** تاريخ القبول: **2024-12-11**

ملخص:

يعدّ الحجاج أحد أبرز آليات المنهج التداولي التي يوظفها المتكلم لغرض إقناع المخاطب والتأثير فيه. والمتأمل في كتاب: "حديث الأربعاء" لطه حسين في جزئه الأول يجده خطابا حجاجيا بامتياز يوظّف فيه صاحبه كثيرا من الآليات الحجاجية اللغوية التي يروم من خلالها استمالة خصومه والتأثير فيهم وحملهم على الاقتناع بما جاء فيه من آراء وأفكار.

وسنحاول من خلال هذا المقال أن نقف عند مفهوم الحجاج وضبط مصطلحه، ثم البحث عن أهم تلك الآليات الحجاجية اللغوية، وكيف وظفها الكاتب في إقناع خصومه ومحاججتهم.

الكلمات المفتاحية: حجاج؛ آليات لغوية؛ حديث أربعاء؛ تداولية.

Abstract:

The argumentation is one of the most prominent mechanisms of the deliberative approach that the speaker employs for the purpose of persuading and influencing the addressee. Anyone who contemplates the book: "Hadith Al Arbiaa" by Taha Hussein, in its first part, will find it to be an argumentative speech par excellence, in which its author employs many linguistic argumentative mechanisms through which he aims to win over his opponents, influence them, and get them to be convinced of the opinions and ideas he stated.

* **- المؤلف المُراسل.**

Through this article, we will try to understand the concept of argumentation and define its term, then search for the most important of these linguistic argumentative mechanisms and how the writer employed them to persuade and argue with his opponents.

Keywords: Argumentatic; Linguistic mechanisms; Hadith Al arbiaa; Pragmatics.

مقدمة:

كتاب "حديث الأربعاء" لـ "طه حُسين" عبارة عن دراسات أدبية ونقدية مستفيضة عن المستوى الفني الذي وصل إليه الشعر القديم، يتطرق في أغلب فصوله إلى تأكيد فكرة مفادها أنّه لم يكن يدافع عن الشّعر القديم لكونه قديما فقط، ولم يكن ينتصر له بسبب العواطف والأحاسيس التي تدفع بالمرء للاعتزاز بتراثه، بل كان يرى فيه فنا راقيا، وصورا بديعة، لا بدّ لنا من الاحتفاظ بها وضمان استمرارها لما فيها من لذة وإمتاع في قراءتها ودراستها، ولتكون مرجعا وأساسا وركيزة لأنواع الثقافة المختلفة، حيث يستمد العقل منها غذاءه فيتمكن من تطوير هذا الأدب بطريقة دون المساس بأصوله ودون التأثير عليه في شيء، فيتمكن الباحثون من خلال دراساتهم ومن خلال إدراك ألفاظه ومفرداته ومعانيه من أن يكون لهم نهج طريق ومرجع أساس في ظل هذه الحياة التي لم يعد فيها شيء على النهج السليم والطريق الصحيح.

يُذكر أن هذا الكتاب الذي تم تجميع مقالاته من الكتب النقدية التي تُعدّ من أصدق الدراسات التي قامت - وبشكل مستفيض - بدراسة شعر تلك المرحلة من تاريخ الشعر العربي، فهذه المقالات تمكّن من خلالها عميد الأدب العربي من تسليط الضوء على الجانب الفني واللفظي واللغوي وأيضا الحياتي لعدد من أشهر الشعراء العرب عبر أكثر من فترة زمنية معينة.

وبما أنّ "طه حسين" قد تفرّد بفكره، وشذّ عن كثير ممّن عاصروه من الأدباء والمفكرين، فقد كان لزاما أن تقع العديد من الصّدامات الفكرية بينه وبينهم، حيث يحمل كل طرف من أطراف هذه النزاعات الفكرية قضايا ما؛ يؤمن بها ويدافع عنها بحجج وبراهين تُظْهِرُه على خصومه. ممّا يجعلنا نقف عند مفهوم الحجاج وضبط مصطلحه حتى نعرف المنهج والكيفية التي اتّبعها هذا الأديب والمفكر في إقناع خصومه ومحاججتهم.

1- مفهوم الحِجاج: وفي هذه النقطة سنعرض إلى بيان مفهوم الحجاج في اللغة وفي الاصطلاح

1.1- الحجاج لغة: جاء في معجم العين للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 174 ه)، قد تكسر الحُجة والحجّ فيقال: حجّ وحجّة. وحجّ فلانٌ أي: قدم والحجّ كثرة القصد إلى من يُعظّم. والمحجّة: قارعة الطريق الواضح، والحُجّة: وجه الظفر عند الخصومة، والحجاج: العظم المستدير حول العين.[1]

فنلاحظ ارتباط لفظ الحجاج هنا بالقدوم، والقصد، والطريق الواضح، والظفر عند الخصومة...

وجاء في لسان العرب لابن منظور (ت 711ه)، من مادة (حجج)، الحجّ : القصد، وحجّ إلينا فلانٌ أي قدم، وحجّه يحجُّه حجًّا: قصده، وحجَجْتُ فلانًا واعتمدته أي قصدته، ورجل محجوج أي مقصود، وقد حجّ بنو فلانٍ فلانًا إذا أطالوا الاختلاف إليه، والحجّة: المرة الواحدة، والحجّ: الزيارة والإتيان، وحاججته أحاجّه محاجّة حتّى حججته أي غلبته بالحجج، والمحجّة: الطريق، والحجّة: البرهان، وقيل الحُجّة: ما دوفع به الخصم.[2]
فالملاحظ هنا أن مفهوم الحجاج ارتبط بالقصد، والاختلاف، والمرة الواحدة، والزيارة، والغلبة، والطريق، والبرهان.

2.1- الحجاج اصطلاحا: تباينت التعريفات الاصطلاحية للحجاج وقد أخذها كل باحث على حسب وجهة نظره، وبحسب المنطلقات التي ارتكزوا عليها (بلاغية، لسانية، فلسفية...)، وسنورد هنا بعض هذه التعريفات:

- الحجاج عند بيرلمان وتيتكاه:

[1]- الخليل بن أحمد الفراهيدي، معجم العين، تحقيق: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامرائي، ج 3، باب الحاء مع الجيم، ص 9، ص 10.

[2]- ينظر: ابن منظور، لسان العرب، تحقيق: مجدي فتحي السيد، دار التوفيقية للتراث، القاهرة، مصر، ج 3، ص 61، 62.

يرى كل من "بيرلمان Ch.Perelman" و"تيتكا L.O.Tyteca"[1] أنّ الحجاج عبارة عن بعض التقنيات والوسائل البلاغية الموجودة داخل النص والتي تساعد المتلقي أو تحمله على الإذعان لما يعرض عليه، بمعنى محاولة التأثير على عقل المتلقي من خلال هذه التقنيات لإقناعه؛ لذلك يرى بيرلمان أنّ الجدل متساوق مع الحجاج لأنه يأخذ منه التماشي الفكري الذي يقود إلى التأثير العقلي في المتلقي.[2]

فالخطاب الحجاجي خطاب يرتكز أساسا على منتجي الخطاب، إذ يحمل الطابع الجدلي الذي يتجسد بين المتكلم والمتلقي، وذلك من خلال توظيف آليات مختلفة، تُكسب هذا الخطاب قدرة حجاجية.

وعليه فقد عرف الباحثان الحجاج بأنه: "هو درس تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالأذهان إلى التسليم لما يُعرض عليها من أطروحات، أو أن تزيد في درجة ذلك السُّلم."[3]

ويقسّم هذان الباحثان الحجاج بحسب نوع الجمهور إلى نوعين:

- الحجاج الإقناعي: الذي يهدف إلى التأثير في مجموعة معينّة من الأشخاص.
- الحجاج الاقتناعي: ويرمي إلى أن يسلّم به كل إنسان، فهو عام؛ يعمل على التأثير على كل من له وعي وإدراك.[4]

- الحجاج عند ديكرو:

يعدّ "ديكرو" O. Ducrot من مؤسسي نظرية الحجاج، بعدّها "نظرية لسانية تهتم بدراسة الوسائل اللغوية، وإمكانات اللغات الطبيعية التي يملكها المتكلم، وذلك بقصد

---

[1]- Chaim Perelman" شاييم بيرلمان" (1912- 1984)، و" Lucie Olbrechts-Tyteca" لوسي أولبريخت تيتيكا (1899- 1987) أكاديميان بلجيكيان، ومؤسسا ما يُعرف: (بالبلاغة الجديدة) من خلال كتابهما: الوجيز في الحجاج البلاغة الجديدة. .

[2]- منتصر نبيه محمد صديق، سلطة النص وآليات الحجاج قراءة في نونية أبي إسحاق الألبيري، مجلة الدراسات العربية، كلية دار العلوم، جامعة المنيا. مصر. ص 5614.

[3]- عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط 1، 2001م، ص 27.

[4]- ينظر: عبد الله صولة، في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، مسكيلياني للنشر والتوزيع، تونس، ط1، 2011م، ص 15.

توجيه خطابه وجهة ما، تمكنه من تحقيق بعض الأهداف الحجاجية؛ لأنها تنطلق من فكرة مفادها: أننا نتكلم بقصد التأثير."[1]

وتقوم نظرية "ديكرو" على عدِّ اللغة حاملة بصفة ذاتية لوظيفة حجاجية، فالحجاج متضمن في البنى اللفظية، والقول لا ينفصل معناه عن قوة حجاجية كامنة فيه.

- الحجاج عند أبي بكر العزاوي:

يعدّ الدكتور أبو بكر العزاوي واحدا من أصحاب المشاريع الجديدة للدراسات اللغوية والحجاجية خصوصا، يقول :"إنّ الحجاج هو تقديم الحجج والأدلة المؤدية إلى نتيجة معينة، وهو يتمثل في تقديم تسلسلات استنتاجية داخل الخطاب، وبعبارة أخرى يتمثل الحجاج في إنجاز متواليات من الأقوال بعضها هو بمثابة الحجج اللغوية وبعضها الآخر هو بمثابة النتائج التي يستنتج منها."[2] حيث عدّ مفهوم الحجاج بأنّه ما أُسّس على بنية الأقوال اللغوية وعلى تسلسلها داخل الخطاب.

- الحجاج عند طه عبد الرحمان:

لقد كانت نظرة الأستاذ "طه عبد الرحمن" إلى الحجاج ذات طابع فلسفي يستند على المنطق، حيث ارتبط الدرس الحجاجي العربي المعاصر ارتباطا وثيقا به، ومن أبرز أعماله كتابه المعنون بـ :" اللسان والميزان أو " التكوثر العقلي ". وفيه يحدّد " طه عبد الرحمن " الحجاج منطلقا من مبدأين هما: قصد الإدعاء، وقصد الاعتراض على النحو التالي :

- قصد الادعاء: ومقتضاه أنّ المنطوق لا يكون خطابا حقا حتى يحصل من الناطق صريح الاعتقاد لما يقول من نفسه وتمام استعداده لإقامة الدليل عليه عند الضرورة.

- قصد الاعتراض: ومقتضاه أن المنطوق به لا يكون خطابا حقا حتى يكون للمنطوق له حق مطالبة الناطق بالدليل على ما يدعيه.[3] وقد خلص إلى تعريف الحجاج بقوله: حد الحجاج أنه كل منطوق به موجه إلى الغير لإفهامه دعوى مخصوصة، يحق له الاعتراض عليها.[4]

---

[1]- ينظر: أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، العمدة في الطبع، ط 1، 1426هـ- 2006م، ص 14.

[2]- ينظر: المرجع نفسه، ص 16.

[3]- طه عبد الرحمان، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط1، 1998م، ص 225.

[4]- ينظر: المرجع نفسه، ص 226.

2- آليات الحجاج اللغوية في كتاب حديث الأربعاء:

تعدّ اللغة من أهم آليات الحجاج بما تحمله من أساليب ووسائل إقناعية. إنّها تحمل بصفة جوهرية وظيفة حجاجية في كل ظواهرها الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية ذلك أنّ أغلب الخطابات والحوارات الجارية بين المتخاطبين الغرض منها التأثير والإقناع.

والمتأمّل في أسلوب طه حسين في كتابه حديث الأربعاء – على غرار بقية مؤلفاته الأخرى الكثيرة - يجده يوظف كثيرا من الآليات الحجاجية اللّغوية التي يسعى من خلالها إلى الدّفاع عن فكره ومُحاججة خصومه من الأدباء من بني عصره. ومن هذه الآليات اللغوية الكثيرة؛ نجد:

1.2- ألفاظ التعليل: تعدّ ألفاظ التعليل من الأدوات اللغوية التي يستعملها المُرسل لتركيب خطابه وبناء حججه فيه، ومن هذه الألفاظ:

- **الأداة لأنّ :** فقد وردت ألفاظ التعليل بكثرة في كتاب طه حسين وبصورٍ متنوعة أبرزها استعماله أداة التعليل (لأّن) ومن ذلك ما جاء في قوله: "وهو يسلك إلى تصوير عواطفه هذه نفس الطريق التي يَسْلُكها الشُّعراء المُحدثون: طريق التصوير القوي المؤثر، الذي يثير في نفسك الإعجاب لأنّه يؤثر في عقلك وحسّك وشعورك معا." [1]

طريق التصوير القوي المؤثر ⟵ يؤثر في عقلك وحسك
(النتيجة) (الحُجّة)

حيث نلاحظ أن الكاتب حاول إقناع المتلقي بأنّ الشاعر الجاهلي له تصوير قويّ لبيئته ومشاعره إذ إنّ كلامه يلامس العقل وكذلك يلامس القلب، وذلك باستخدامه لفظ التعليل (لأنّ) الذي ساعده في إدراج حجّته.

- قوله: "ونحن ننتظر أن تبين لنا اجتماع هذه الخصال لشعرائك القدماء، حين تعرض علينا الأبيات من شعرهم، وحين تدلنا على ما في ألفاظها وأساليبها وأوزانها وقوافيها من

[1]- طه حسين، حديث الأربعاء، مؤسسة هنداوي للنشر، يورك هاوس، المملكة المتحدة، د ط، 2014م، ج1، ص 28.

الجمال، على أنّ هناك شيئا آخر أراك تتعمد إهماله والإعراض عنه؛ لأنّك تشفق فيما أظن من التعرض له، والوقوف عنده، وهو استقامة بناء القصيدة."[1]

الإهمال وعدم التعرض لبناء القصيدة ⟵ الإشفاق

(النتيجة) (الحُجّة)

فقد حاول الكاتب أن يبرز تهرب خصمه من التطرق لبناء قصيدة "لبيد" بوضع حجّة ساخرة وهي الإشفاق مستعينا بالأداة (لأنّ) في طرحها.

- قوله: "وقد كان لبيد يعيش في بادية نجد، وكان يعرف هذه الأسماء؛ لأنّه كان يعرف هذه الأماكن، ولم يكن يعيش في القاهرة."[2]

معرفة أسماء الأماكن ⟵ عيشه في تلك المنطقة ومعرفة أماكنها

(النتيجة) (الحُجّة)

حيث وظف الكاتب الأداة (لأنّ) لتبرير معرفة لبيد لأسماء الأماكن لأنّه كان يعيش هناك وهو على علم بكل موضع هناك، فربط بين الحجّة والنتيجة بأداة التعليل (لأنّ).

- **أداة التعليل اللام:** ومن الحجج التي ورد فيها التعليل بلفظ اللام (لام التعليل) ما جاء في قوله: "وإذا هو يُصَوِّرُ لها حياتَهُ في السِّلْمِ لَاهيًا في الليل، ولاهيًا في النَّهَارِ، مُتَرَدِّدًا على الحَانَاتِ، مُغاليًا في شِرَاء الخَمْر، مُقامرًا لا ليفيد ويستكثر من الرِّبح، ولكن لِيغني السائل، ويطعم الجائع، ويعطي المحروم".[3]

(لاهيا في الليل... مترددا في الحانات (ليغنيَ السائل ويطعم الجائع

مغاليا في شراء الخمر، مُقامرا) ⟵ ويُعطيَ المحروم)

(النتيجة) (الحُجّة)

وهنا وظّف طه حسين أداة التعليل اللام ليبرر حجته التي مفادها أنّ الشّاعر الجاهلي لبيد كان مقامرا بسبب أنّه يريد أن يساعد السائل والجائع والمحروم، فكلّ ما يربحه من القمار كان ينفقه على هؤلاء الناس.

---

[1]- المرجع نفسه، ص 39.

[2]- المرجع نفسه، ص 42.

[3]- المرجع نفسه، ص 46.

- قوله: "وإذا هو يظفر برجل من عدوه فيقتله، لا خائفًا ولا مُتأثمًا؛ فهو يعلم حق العلم أنَّ قومه لن يخذلوه، وكان يعلم حق العلم أنَّ قومه سيمنعونه من اقتراف الإثم إن علموا به قبل وقوعه، فلِيكتمهم الأمر إذن، وليضعهم أمام الأمر الواقع كما يقول المُحْدَثون." [1]

(كتمان أمره على قومه) ⟵ (وضعهم أمام الأمر الواقع)
(النتيجة) (الحُجّة)

فقد أراد الكاتب أن يُبيّن سبب كتمان الشاعر الجاهلي أمره عن قومه فأدرج حجته باستخدام لام التعليل والتي مفادها أنّه يريد وضعهم أمام الأمر الواقع حتّى لا يمنعوه ولا ينكروا عليه فعلته تلك قبل فعلها.

- **المفعول لأجله:** وهو مصدر يؤتى به للدّلالة على سبب حصول الفعل وعلته، ويشارك فعله في الزمن. [2]

ويعتمد المحاجج المفعول لأجله كحجّة دامغة للمتلقي على صحة دعواه، والتأثير فيه، وإقناعه، كقولك مثلا: سافرت رغبة في طلب العلم... فبهذا القول يكون المحاجج قد وضع حجته الدّاعية إلى السفر؛ المتمثلة في رغبته وحاجته إلى طلب العلم، وزمن الرغبة هو نفسه زمن السفر كما ترى.

ومن المواضع التي ورد فيها المفعول لأجله كآلية حجاجية قوله: "فالَّذين يَلُومونه حين يُخاطر ويُغامر، ويُسرع إلى الحرب أداء للواجب وذَودًا عَنْ قَوْمِهِ، يُخْطِئُونَ لِأَنَّهم لا يَسْتَطِيعونَ أنْ يضمنوا الخلود إذا أعرض عن الحرب." [3]

المخاطرة والمغامرة ⟵ أداء الواجب والذّود عن القوم
(النتيجة) (الحُجّة)

فقد استخدم الكاتب صيغة المفعول لأجله ليقنع المتلقي بأسباب مخاطرة الشاعر ومغامرته دون أدنى خوف، وذلك لأنّه يعتبر ذلك واجبا عليه من جهة، وليحمي قومه من جهة أخرى، فكان استعماله للمفعول لأجله وسيلة لمحاججة السامع وإقناعه.

---

[1]- المرجع نفسه، ص 94.

[2]- خير الدين هني، المفيد في النحو والصرف والإعراب، دار الحضارة، المطبعة الجزائرية للمجلات والجرائد بوزريعة، الجزائر، ط2، 1995م، ص 65.

[3]- طه حسين، حديث الأربعاء، ج1، ص 71.

- **التركيب الشرطي:** وهو وحدة نحوية، تحمل قضية تنحل إلى طرفين، ثانيهما معلق بمقدمة يتضمنها الأول، والعامل الذي تنعقد به القضية هو أداة الشرط، وبناء على التعريف الذي ارتضيناه للجملة، فإنّ جملة الشرط تتكون من مركبين إسناديين يتعلق الثاني بقضية الأول بأداة الشرط ويفيدان معنى تاما.[1]

فالوظيفة الحجاجية للتركيب الشرطي تتمثل في أنّ الجملة الأولى سبب حصول الجملة الثانية، والجملة الثانية هي نتيجة الجملة الأولى ولا يتمّ معنى إحداهما إلا بوجود الأخرى. وإنّ توظيف التركيب الشرط يأتي لتحقيق مقاصد حجاجية لا تتّم إلا به فهو يقوم على حجة تستمد قوتها الإقناعية من التجربة والمعرفة المشتركة التي يشهد بها الحس والواقع، وبهذا يتم الانطلاق من مقدمات يقينية من أجل دفع المتلقي إلى الاقتناع والتّسليم. نجد ذلك في مثل:

قوله: "وَقَدْ زَعمت أنَّك لا تُريد أن تُلقي عليَّ درسًا في اللغة أو في غير اللغة، وإنما تريد أنْ تَصِلَ بينك وبيني حوارًا، فأعفني من هذا الجُزء، وليَكُن مَصنوعًا كما ترى، أو صحيحًا كما أظن؛ فإنَّ وجه الأرض لن يتغير إنْ صَحَّ رأيك أو صدق ظني."[2]

عدم تغيّر وجه الأرض ↓ إنْ ↓ صحّ رأيك أو صدق ظني ↓

(جواب الشرط) (الأداة) (جملة الشرط)

(النتيجة) (الحُجة)

حيث نلاحظ أنّ جملة جواب الشرط هي نتيجة لجملة الشرط وقد استغلها الكاتب في إبراز موقفه، وإقناع خصمه في أنه مهما كان الأمر فالنّتيجة واحدة لا محالة.

- قوله: "وإيّاك أن تظن أنّ صاحبنا على شبابه وفراغه يلهو عبثا، أو ينفق وقته في الشراب والاستمتاع بالنساء استجابة لحسّه وطاعة لهذا الميل الفطري إلى اللذة، فإنّك إنْ ظننت به هذا أخطأت فهمه وأسأت إليه."[3]

---

[1]- ينظر: عبد الغني شوقي موسى الأدبعي، بناء الجملة في السيرة النبوية لابن هشام، جامعة صنعاء، اليمن، 2006م، ص 375.

[2]- طه حسين، حديث الأربعاء، ج 1، ص 68.

[3]- المرجع نفسه، ص 70.

(إنْ) (ظننته يلهو عبثا وينقاد إلى اللذة)⟵ (أخطأتَ الفهم)

(الأداة) (جملة الشرط) (جواب الشرط)

(الحُجّة) (النتيجة)

أدرج الكاتب جملتي الشرط وجوابه ليبين النتيجة وسببها وبالتالي ليؤثر على المتلقي حيث حاول إقناعه بأنّ الشاعر لم يكن لاهيا عابثا منقادا للذاته، ومن يظن هذا الظن فهو مخطئ.

ومن النّماذج التي استخدم فيها الكاتب صيغة الشرط لغرض التأثير في المخاطب وإقناعه؛ قوله: "وإذا كانت أحاديثنا عن هؤلاء الشّعراء ستجرّ عليّ هذا الشرّ الذي لا أريده ولا أقبله؛ فإنّي زاهد في هذه الأحاديث فلنقطعها منذ اليوم."[1]

(إذا) (كانت أحاديثنا ستجرّ عليّ هذا الشر) (إني زاهد في هذه الأحاديث)

↓ ↓ ↓

(الأداة) (جملة الشرط) (جواب الشرط)

(الحُجّة) (النتيجة)

فقد حاول الكاتب أن يُقنع خصمه بأنّه لن يكمل أحاديثه معه إن كانت ستجرّ عليه شرّا لا يريده، ولا يقبله، باستخدام أسلوب الشرط بالأداة (إذا) متبوعة بالحجّة ونتيجتها.

2.2 الأفعال الكلامية (اللغوية):

يعدّ الفعل اللغوي أو الفعل الكلامي أحد أهم المفاهيم التداولية، ومن أبرز قضاياها، وقد ارتبط مفهومه بالحدث (Action)، الذي يعني أساسا التغيير في الواقع؛ إذ تكمن أهميته في كونه سلوكا لغويا يستطيع المتكلم تجسيده عن طريق عملية التواصل، وبذلك فهو – أي الفعل الكلامي- لا يختلف عن بقية الأفعال غير الكلامية الأخرى. وفي هذا الصّدد يقول "فان دايك": "وما نعنيه بقولنا: إنّنا نفعل شيئا ما متى صُغنا عبارة معيّنة هو

[1]- المرجع نفسه، ص 75.

أنّنا نقوم بإنجاز فعل اجتماعي؛ كأن نعد وعدا ما، أو نطلب، أو ننصح، وغير ذلك ممّا شاع وذاع أنّه يُطلق عليه أفعال الكلام." [1]

ويرتبط مفهوم الفعل الكلامي في الدرس التداولي الحديث بالفيلسوف اللغوي "ج. ل. أوستين J.L. Austin" الذي لاحظ أنّ الفعل الكلامي مركب من ثلاثة أفعال، تؤلف فعلا كلاميا واحدا وتُؤدى في آن واحد، ولا يمكن الفصل بينها إلاّ لغرض التيسير والدراسة وهي:

أ- فعل القول أو الفعل اللفظي: وهو النطق ببعض الألفاظ والكلمات أي إحداث أصوات لغوية تنتظم في تركيب نحوي سليم، ينتج عنه معنى محدّد، هو المعنى الأصلي. وهذا الفعل يقع دائما مع كل قول، لكنه – وإن أعطى معنى ذلك القول- فإنّه يظلّ غير كاف لإدراكنا أبعاده ومعانيه.[2] مثال ذلك: إذا قال شخص ما لصديقه: (إنّها ستُمطر)، فقد يدرك الصّديق معنى فعل القول اللفظي هذا، إلاّ أنّه لا يمكنه أنْ يدرك ما إذا كان هذا القول إخبارا، أم تحذيرا، أم طلبا لاتّخاذ الاحتياط قبل الخروج من البيت مثلا ، لأنّ ذلك يتوقّف على قصد المتكلم.

ب- الفعل المتضمن في القول: وهو الفعل الغرضي أو الإنجازي؛ وهو ما يؤديه الفعل اللفظي من معنى إضافي يكمن خلف المعنى الأصلي، لأنّ غاية المتكلم التعبير عن معان في نفسه كالاستفهام الأمر والنهي، والاعتراض، والموافقة، والقبول، وغيرها... وهذا القسم من الأفعال الكلامية – أي الفعل الإنجازي – هو المقصود من نظرية (أفعال الكلام) عند "أوستين"، حيث سمى هذا الأخير الوظائف اللسانية الكامنة خلف هذه الأفعال المتضمنة في القول بالقوة الإنجازية.

فالقوة الإنجازية للقول السابق: (إنّها ستمطر) – مثلا – تختلف باختلاف الظروف والمقام الذي ترد فيه، إذ يكون لها في موضع معين (قوة الخبر)، وفي موضع آخر (قوّة التحذير) وهكذا... [3]

---

[1]- فان دايك، النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ترجمة عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، د ط، 2000م، ص 263.

[2]- أوستين، نظرية أفعال الكلام العامة، كيف ننجز الأشياء بالكلام، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، 1991م، ص 16.

[3]- ينظر: المرجع نفسه، ص 120.

ج- الفعل الناتج عن القول: أو الفعل التأثيري، ويتمثّل هذا الفعل في إحداث تأثيرات ونتائج في المُخاطبين، مثل حثّهم على القيام بفعل ما أو حملهم على الخوف أو الضّحك أو الحُزن أو غير ذلك...، ولا يمكن التنبّؤ به لأنّ ردّ فعل المخاطب حينئذ قد يكون على عكس ما كان يتوقعه المتكلم.

وتُعدّ الأفعال الكلامية من أبرز الآليات اللغوية التي تُسهم بدور كبيروفعال في عملية الحجاج، ومن أمثلة تلك الأفعال الكلامية:

1- الاستفهام: الذي يعتمد عليه كثيرون ويتوسلون به في فعلهم الحجاجي، إذ إنّ طرح السؤال يمكن أن يُضخّم الاختلاف حول موضوع ما إذا كان المخاطب لا يشاطر المتكلم الإقرار بالجواب، كما يمكن أن يلطّف السؤال ما بين الطرفين من اختلاف إذا كان المخاطب يميل إلى الإقرار بجواب غير جواب المتكلم.[1]

وقد ورد الاستفهام في كتاب حديث الأربعاء لأغراض تداولية عديدة ومتنوعة، يهدف من خلالها المتكلّم إلى إقناع السامع ومحاججته؛ ومن ذلك قول الكاتب: "وأيّ بأسٍ من أن يُترجَم الشّعرُ العربي القديم إلى اللغة العربية الحديثة؟"[2] فهنا لم يستخدم المحاجج الاستفهام لغرض السؤال حقيقة عن إمكانية ترجمة الشعر العربي القديم إلى اللغة الحديثة وإنّما استعمله لغرض محاججة السامع وجعله يُقرّ بضرورة هذه الترجمة ويقتنع بإلزاميتها حتى يتسنّى له الفهم الصحيح للشعر العربي القديم.

وقوله: "ولكن انظر إلى هذه الصور الجميلة، التي يُؤدي الشاعرُ فيها هذه المعاني، وحدِّثني لو أنَّ شاعرًا مُحْدَثًا أراد أن يُؤدي مثل هذه المعاني، أتراه يستطيع أن يؤديَها في صور خير من هذه الصور؟".[3] فاستفهام الكاتب هنا لا يتطلب إجابة بالنفي أو الإثبات، بقدر ما نجده يتضمن قوة إنجازية هي الإنكار على الشعراء المحدثين أن يصوّروا تلك الآثار والأطلال كما صورها القدماء، وهنا كان في الاستفهام إقناع للخصم بعدم قدرة هؤلاء المحدثين على مجاراة السابقين في هذا الباب.

---

[1]- ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، إستراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2004م، ص 484.

[2]- طه حسين، حديث الأربعاء، ج1، ص 28.

[3]- المرجع نفسه، ص 30.

- قوله: "إنكم تقولون يا سيدي إن القصيدة العربية مضطربة التكوين، بحيثُ نَستطيع أنْ نُقَدِّم منها ونُؤَخِّر، ونضع أبياتها فيما نحب لها من المواضع، دون أن يُصيبها من ذلك فساد أو اعتلال. فأمامك قصيدة لبيد هذه، فأرني كيف تُقدم فيها وتؤخر؟ وكيف تضع فيها بيتا مكان بيت دون أن تفسد معناها إفسادا وتشوّه جمالها تشويها؟"[1]

فقد أراد الكاتب أن يردّ على حجة خصمه الذي يظن بأنّه ليس للقصيدة العربية القديمة وحدة عضوية فجاء استفهامه كتعجيزٍ وتحدٍ له بأنّ تلك القصيدة لحُمة واحدة وبناء متقن لا يتجزأ، فحمل استفهامه ذاك في طياته حجّة قوية ردّ بها على صاحبه.

2- النّداء: فقد وظف الكاتب الفعل الكلامي (النّداء) كآلية للحجاج في مواضع كثيرة من كتابه؛ نجد ذلك في:

- قوله: "وأنت يا سيدي مخطئ أشد الخطأ حين تُظهر ما تظهر من الضّجر..."[2]
- وقوله: "فشاعري يا سيدي قادر ماهر، وهو ماكر أيضًا..." [3]
- وقوله: "فشاعري يا سيدي صاحب حركة ونشاط..."[4]
- وقوله: "ناقة شاعري يا سيدي قد تعوّدت الأسفار، واحتمَلتْ مِنْ أسفارها غير قليل..." [5]

حيث نجد الكاتب في الأمثلة المذكورة السابقة يستخدم الفعل الكلامي (النداء) لغرض استعطاف خصمه، مستعملا لفظة: (سيدي) لمناداته ليؤسّس عليها نداءه بالإضافة إلى أنّها حجّة في حدّ ذاتها، فقد وضّح بها ماهية العلاقة بينه وبين خصمه، إذ جسّد بها مدى الاحترام الذي يُكنّه له رغم الاختلاف الفكري بينهما، وفي ذلك استدراج له لأنّه يريد التودّد إليه، والتعاطف معه والتقليل من حدّة الاختلاف بينهما لحصول التّصديق، ثمّ حمله على الاقتناع بكلامه.

3- الوصف: وتعدّ ألفاظ الوصف من أكثر الأدوات اللغوية التي يوظفها المتكلم لمحاججة السامع وحمله على الاقتناع عند مخاطبته، وهي تشمل كثيرا من الألفاظ كالصفة (النّعت)،

---

[1]- المرجع نفسه، ص 41.

[2]- المرجع نفسه، ص 32.

[3]- المرجع نفسه، ص 32.

[4]- المرجع نفسه، ص 32.

[5]- المرجع نفسه، ص 32.

واسم الفاعل، واسم المفعول ونحو ذلك... وفيما يلي عرض لنماذج منها، مع بيان دورها الحجاجي.

أ- الصفة: تعدّ الصفة من الأدوات التي تمثل حجة المتكلم في خطابه، لارتباطها الوثيق بإرادته - أي المتكلم – في إقناع المخاطب، وتغيير الحكم الذي لديه، باللجوء إلى الوصف المذكور ليتحقّق في ذهنه ويعلق به.[1] كما في المثال التالي: "تحطمت طائرة استطلاع بدون طيار فوق المرتفعات عندما كانت تقوم بعملية "روتينية". حيث يهدف المتكلم (المُرسل) في مثل هذا الخطاب إلى إقناع المتلقين بأنّ العملية لم تكن لأيّ مآرب أخرى، إذ إنّ وصفه إياها بأنّها (روتينية) يعدّ في حدّ ذاته فعلا حجاجيا يُزيل كثيرا من التّساؤلات حول تلك الطلعة الجوية التي قامت بها الطائرة.

وبهذا، فإنّ الصفة تمثل أداة في الفعل الحجاجي وعلامة عليه، فلا يقتصر المرسل على توظيف معناها المعجمي أو تأويليه، بل يبتغي التقويم والتصنيف واقتراح النتائج التي يريد حصولها أو فرضها. وهذا ما يعطيها الطواعية والمرونة التي هي من صلب خصائص الخطاب الطبيعي في الممارسة الحجاجية، ليمارس المرسل أكثر من فعل واحد؛ بالتصنيف وبتوجيه انتباه المُرسَل إليه إلى ما يريد أن يقنعه به في حجاجه.[2]

ومن بين المواضع الكثيرة التي وظّف فيها الكاتب (الصفة) كآلية لغوية حجاجية لإقناع المخاطب:

- قوله: "وإنّي لأعلم أنّ الأبيات الأولى من قصيدة لبيد خشنة الملمس، غليظة اللفظ، بعيدة المعنى عن مألوفنا."[3]

فقد أراد الكاتب – هنا - أن يبيّن لخصمه صعوبة أبيات قصيدة لبيد فاستعان ببعض الصّفات وهي: (خشنة، غليظة، بعيدة المعنى) ليقنعه بهذا الأمر، فهذه الصّفات تدل على استحالة استيعاب غير المتمكنين من اللغة في فهم القصيدة.

---

[1]- ينظر: خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية مقاربة بين التداولية والشعر، دراسة تطبيقية، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، العلمة، الجزائر، ط 1، 2012م، ص 99.

[2]- ينظر: عبد الهادي بن ظافر الشهري، إستراتيجيات الخطاب، مرجع سابق، ص 487.

[3]- طه حسين، حديث الأربعاء، ج1، ص 28.

- قوله: " لولا أنّ الشّاعر قويّ النفس، شديد الأيد، عظيم الحظّ من الإرادة، جلدٌ صبور، فهو لا يستسلم للعاطفة، ولا يخضع لسُلطانها..." [1]

فقد حاول الكاتب من خلال ما استعمله من صفات للشاعر (لبيد) أن يُقنع المخاطب ويُحاججه بمدى صلابة الشاعر، على الرغم من أنّه ابتدأ قصيدته بالنسيب والحُزن إلا أنّه لم يستسلم لعواطفه ومشاعره ولم يخضع لسلطان هواه، إنّما يأخذ من تلك المشاعر بمقدار ما ينبغي للعاقل الأخذ به، مستعينا في ذلك بمجموعة صفات القُوة التي ذكرها. بينما نجد الكاتب في موضع آخر يحاول أن يبيّن لخصمه ويُقنعه بسهولة فلسفة حياة الشّاعر؛ "طرفة بن العبد" عن طريق نعوت وصفات تدلّ على بساطة فلسفته تلك وسهولتها، في قوله: "فاحذر أن تكون كقومه عاجزًا عن فهمه، مُقصرًا في إدراك فلسفته، فهي فلسفة يسيرةٌ سهلةٌ خليقةٌ أن تُفهم." [2]

ب- اسم الفاعل: يعدّ اسم الفاعل من الآليات اللغوية الوصفية التي يُدرجها المرسل في خطابه كحجة على قضية يريد إثباتها أو دحضها، ولكونه وصفا يصدره المتكلم ليقنع به المتلقّين. وهو في تعريفه: "اسم مشتق، يدلّ على معنى مجرد، حادث، وعلى فاعله. فلا بدّ أن يشتمل على أمرين معا؛ هما: المعنى المجرّد الحادث، وفاعله... ودلالة اسم الفاعل على المعنى المجرد الحادث أغلبية؛ لأنه قد يدلّ – قليلا – على المعنى الدائم أو شبه الدائم... ودلالته على ذلك المعنى المجرد مطلقة، أي لا تفيد النّص على أنّ المعنى قليل أو كثير فصيغته الأساسية محتملة لكل واحد منهما."[3] ونجد ذلك في قول طه حسين: "ولكنّه نسيبٌ شاحبٌ، فيه حزن يشتد حتى يؤثر في النّفس..." [4]

فقد استعان الكاتب هنا بصيغة اسم الفاعل (شاحب) ليقنع خصمه بمدى الحزن الذي تملّك الشاعر حتى ظهر في تغزّله وتشبيبه بالنساء، فحملت هذه اللفظة طاقة إقناعية؛ تؤثر في المتلقي وتجعله يُسلّم بما قاله المحاجج.

---

[1]- المرجع نفسه، ص 28.

[2]- المرجع نفسه، ص 70، 71.

[3]- ينظر: عباس حسن، النحو الوافي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط 4، د ت، ج 3، ص 238، 239.

[4]- طه حسين، حديث الأربعاء، ج 1، ص 28.

- قوله: "... وهي تُلحّ في التماسه هائمة في الأرض ما قدرت على الهيام، صائحة منادية ما وجدت قدرة على الصياح والنداء..." [1]

فالكاتب - هنا – يصف حالة البقرة الوحشية التي ذكرها لبيد في شعره إثر فقدها لولدها، ويحاول أن يقنع المخاطب بألمها وحزنها على هذا الفقد فوصفها بلفظ اسم الفاعل: الهائمة، الصائحة، المنادية... تعبيرا على حسرتها لفقد صغيرها.

- قوله: "... وما أحسب إلّا أنّ وراء هذا الشعر الرائع شاعرا بارعا..." [2]

فقد أراد الكاتب أن يُبيّن لخصمه ويُقنعه بأنّ هذا الشّاعر على قدر كبير من التّمكّن والإجادة، وأنّ شِعره رائعٌ وعذب فاستخدم في ذلك الوصف باسم الفاعل: الرائع، بارعا.

ج- اسم المفعول: وهو اسم مشتق، يدلّ على معنى مجرد، غير دائم، وعلى الذي وقع عليه هذا المعنى، فلا بدّ أن يدل على الأمرين معا. [3]

ويُصنّف اسم المفعول على أنّه من الأوصاف الحجاجية المستعملة. فمثلا لو قلتَ لشخص ما: "هذا رجل ميسور الحال"، فلفظة ميسور أتت لتقنع المتلقي بأنّ الرّجل المتحدّث عنه ذا بسطة وسعة في الرّزق، وهكذا فكلّ الصيغ التي على هذا الوزن تحمل أبعادا إقناعية للتأثير في السّامعين. وقد وظّف الكاتب لفظ اسم المفعول كآلية حجاجية لغوية في مواضع كثيرة من كتابه، كما في:

- قوله: "وكلّ هذه المعاني مألوفة عند الشعراء الأقدمين..." [4]

فقد أراد الكاتب أن يقنع خصمه بأنّ كل المعاني الموجودة في القصيدة هي معانٍ مُتداولة ومعروفة عند الشّعراء القدماء فاستخدم اسم المفعول (مألوفة) ليقنعه بذلك.

- قوله: "فهذه البقرة المرتاعة المحزونة الهائمة في طلب ابنها..." [5]

---

[1]- المرجع نفسه، ص 34.

[2]- المرجع نفسه، ص 47.

[3]- عباس حسن، النحو الوافي، ج 3، ص 271.

[4]- طه حسين، حديث الأربعاء، ج1، ص 30.

[5]- المرجع نفسه، ص 34.

لقد حاول الكاتب هنا أن يبيّن حالة تلك البقرة لخصمه، وفي الوقت نفسه التأثير عليه وإقناعه بهذه الحالة فاستعان باسم المفعول: المرتاعة، المحزونة... للدلالة على مدى حزنها على ابنها، وخوفها من أن لا تجده.

- قوله: " ... حتى إذا أتم هذا المعنى إتمامًا، انتهى إلى نتيجته المحتومة، وهي اليأس المريح والتعزّي عن الحزن بالارتحال..." [1]

يبيّن الكاتب هنا، أنّه وفي آخر المطاف هناك نتيجة واحدة يصيرُ إليها الشاعر وهي اليأس والارتحال، فعبّر عنها بصيغة اسم المفعول (المحتومة) ليؤكد على أنّ تلك النتيجة محسومة من البداية، ويقنع المخاطب بأنّه لا يوجد فائدة من المحاولة مرة أخرى.

- قوله: "هذا الشّعر الذي لا يتخذه الشاعر وسيلة إلى غرض من أغراض الحياة، أو عرض من أعراضها المألوفة وإنَّما هو غاية في نفسه، لا يقصد الشاعر به إلى غيره..." [2]

فقد استخدام الكاتب - هنا - اسم المفعول (المألوفة) والذي يعود على الحياة، ليُقنع خصمه، وليُبيّن لنا أنّ الشاعر لم يطمح ليصيب شيئا من الحياة بشعره ولم يقله إلا تغنيا به وإبرازا لمشاعره، وهذا تأكيد للخصم بعفوية الشاعر "زُهير" وصِدقه في شعره.

الخاتمة:

في الختام يمكن أن نخلُص إلى جملة من النتائج، نوردها فيما يلي:

- يعدّ الحجاج فنّ الإقناع، إذ يتم من خلاله تقديم الحجج إلى المتلقي لحمله على الاقتناع. وهذا التعريف جامع شامل لما قدمه الدارسون في الثقافتين؛ الغربية والعربية.

- يمتاز أسلوب خطاب طه حسين بمكونات حجاجية بامتياز، إذ له القدرة على مواجهة الخصوم ودفعهم للاقتناع برأيه.

- براعة طه حسين في توظيفه الحجاج؛ والذي يسعى من خلاله إلى حمل المتلقين على الإذعان لرأيه حول موضوع الأدب القديم، وضرورة الانكباب عليه بالدراسة والتمحيص ليتذوقوا ألفاظه الفخمة ومعانيه الرائعة.

---

[1]- المرجع نفسه، ص 43.

[2]- المرجع نفسه، ص 97.

- كتاب حديث الأربعاء (الجزء الأول) يزخر بالآليات الحجاجية اللغوية الكثيرة، والتي وظفها طه حسين لإقناع خصومه من القُرّاء وجعلهم يذعنون لآرائه النقدية. ومن أبرز تلك الآليات الحجاجية اللغوية، نجد:

- ألفاظ التعليل التي استخدمها الكاتب لبناء حججه وتركيب خطابه، ومنها:

- المفعول لأجله الذي يعدّ أحد أساليب طرح الحجج إذ يدل على سبب حصول ما قبله في الكلام. بالإضافة إلى أدوات التعليل؛ التي استخدمها الكاتب بنسبة كبيرة جدا في الكتاب، لما لها من دور في تبرير الفعل أو عدمه.

- أمّا الأفعال اللغوية فكان لها هي الأخرى نصيب في عملية الحجاج في خطاب طه حسين في كتابه حديث الأربعاء (الجزء الأول) وبخاصة فعلي الكلام: الاستفهام والنّداء اللذين وظفّهما الكاتب بشكل واسع في عملية الإقناع لما لهما من دور في إثارة الأذهان وفتح المجال للنقاش بين المتخاطبين.

- أسلوب طه حسين زاخر بالأوصاف بمختلف صيغها من: صفة، واسم فاعل، واسم مفعول... والتي وظّفها في كتابه لما لها من دور كبير في الحجاج من خلال قدرتها على توجيه ذهن المخاطب إلى ما يريده المتكلم.

قائمة المراجع:

- ابن منظور، لسان العرب، تح: مجدي فتحي السيد، دار التوفيقية للتراث، القاهرة، مصر، ج 3.
- أبو بكر العزاوي، اللغة والحجاج، العمدة في الطبع، ط 1، 1426هـ- 2006م.
- أوستين، نظرية أفعال الكلام العامة، كيف ننجز الأشياء بالكلام، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، د ط، 1991م.
- الخليل بن أحمد الفراهيدي، معجم العين، تح: د/مهدي المخزومي، ود/إبراهيم السامرائي، ج 3.
- خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية مقاربة بين التداولية والشعر، دراسة تطبيقية، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، العلمة، الجزائر، ط 1، 2012م.
- خير الدين هني، المفيد في النحو والصرف والإعراب، دار الحضارة، المطبعة الجزائرية للمجلات والجرائد بوزريعة، الجزائر، ط2، 1995م.
- طه حسين، حديث الأربعاء، مؤسسة هنداوي للنشر، يورك هاوس، المملكة المتحدة، د ط، 2014م.
- طه عبد الرحمان، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط 1، 1998م.
- عبد الغني شوقي موسى الأدبعي، بناء الجملة في السيرة النبوية لابن هشام، جامعة صنعاء، اليمن، 1427هـ/2006م.
- عبد الهادي بن ظافر الشهري، إستراتيجيات الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، لبنان، ط1، 2004م.
- عبد الله صولة، الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، دار الفارابي، بيروت، لبنان، ط 1، 2001م.
- عبد الله صولة، في نظرية الحجاج دراسات وتطبيقات، مسكيلياني للنشر والتوزيع، تونس، ط1، 2011م.
- فان دايك، النص والسياق، استقصاء البحث في الخطاب الدلالي والتداولي، ترجمة عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، د ط، 2000م.

- منتصر نبيه محمد صديق، سلطة النص وآليات الحجاج قراءة في نونية أبي إسحاق الألبيري، مجلة الدراسات العربية، كلية دار العلوم، جامعة المنيا، مصر، المجلد 37، العدد 10، 2018م، ص5614.